المبحث الأوَّل
ترجمة المؤلف[1]

*** اسمه ونسبه:**

هو الإمام العلامة الرباني المتفنن الواعظ: محمد بن علي بن الحسن ابن بشر الترمذي، أبـو عبدالله، الملقب: بالحكيم، المؤذن، الصوفي، الزاهد، الحافظ، الشافعي.

وقد جاء في بعض المراجع المترجمة تسمية: (الحسن) بـ (الحسين)، وتسمية: (بشر) بـ (بشير).

*** معنى الحكيم:**

لا أرى فلسفة هذا الاسم كما حاول بعض المحققين.

---

(١) انظر: «طبقـات الصوفيـة» للسلمي (ص: ١٧٥)، «حليـة الأولياء» لأبي نعيم (١٠/ ٢٣٣)، «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٢/ ٢٤٥)، «المستفاد من ذيل تاريخ بغداد» للدمياطي (١٩/ ٢٦)، «تذكرة الحفاظ» للذهبي (٢/ ٦٤٥)، «تاريخ الإسلام» للذهبي (٢١/ ٢٧٦)، «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٣/ ٤٣٩)، «لسان الميزان» لابن حجر (٥/ ٣٠٨)، «فيض القدير» للمناوي (١/ ١١٥)، «طبقات المفسرين» للداودي (ص: ٥٦)، «كشـف الظنون» لحـاجي خليفـة (٢/ ١٩٧٩)، «هديـة العـارفين» (٦/ ١٥)، «شـذرات الذهـب» لابن العماد (٢/ ٢٢٠)، «الرسالة المستطرفة» للكتاني (ص: ٥٦).

فالأمر واضح عندما تتأمل قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[البقرة: ٢٦٩].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾[لقمان: ١٢].

وقال الحكيم في الأصل الثالث والسبعين: إذا نطق الحكيم، نشر عن الله منته وإحسانه، وبصَّر الخلق، فردهم إلى الله، قال تعالى: ﴿آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ﴾[لقمان: ١٢].

وقال في الأصل السابع والثمانين والمئة: فالحكيم قد كشف له الغطاء، فيرى عواقب الأمور، فيرى شَيْنها وقبحها.

وقال في الأصل السادس والثمانين والمئتين: فالحكمة من نور الجلال، فإذا أعطي العبد انفجرت ينابيع الحكمة على قلبه، فهذه الحكمة ينبوعها على قلبه، فهي جاثمة متراكمة، وما لم تأخذه التجارب، لم تقدر النفس على مطالعة الحكمة؛ لأن النفس بلهاء غتمية، مشغولة بالشهوات، فكيف تدرك الحكمة، والحكمة باطن الأمور، وأسرار العلم، فهي تعاين الظاهر ولا تدركه، فكيف تدرك الباطن؟.

لذا قال من ترجم الحكيم: له حكم ومواعظ وجلالة.

وبهذا يتبين المراد. والله أعلم.

*** هل انفرد بلقب الحكيم:**

لم ينفرد الحكيم بهذا اللقب، وإن اشتُهر به، وصار علماً عليه.

والمتتبع لكتب التراجم يجد أن بعض الأعلام قد أطلق عليه هذا اللفظ، وامتُدح به، على قلة فيهم.

منهم مثلاً:

أبو بكر الوراق محمد بن عمر الحكيم[1].

إبراهيم بن علي بن محمد السلمي المغربي الحكيم الإمام في العقليات[2].

***مولده:**

جميع من ترجم له لم يذكر تاريخ ميلاده، بل اكتفى بعضهم بأنه ولد في «ترمذ» في أوائل القرن الثالث الهجري. والله أعلم.

***موطنه:**

«ترمذ»[3]:

وهي مدينة على طريق نهر جيحون، وفي ضبطها ثلاثة أقوال:

الأول: فتح التاء وكسر الميم، وهو المتداول بين أهلها.

والثاني: كسرهما.

والثالث: ضمهما.

وفي «الأنساب»[4]:

هذه النسبة إلى مدينة قديمة، على طرف نهر بلخ، الذي يقال له: جيحون.

---

(١) انظر: «حلية الأولياء» (١٠/ ٢٣٥).

(٢) انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» (٨/ ١٢١).

(٣) انظر: «معجم البلدان» (٢/ ٢٦)، و«شذرات الذهب» (٢/ ٢٢٠).

(٤) انظر: «الأنساب» للسمعاني (١/ ٤٥٩).

خرج منها جماعة كثيرة من العلماء، والمشايخ، والفضلاء.

والناس مختلفون في كيفية هذه النسبة، بعضهم يقولون: ـ بفتح التاء المنقوطة بنقطتين من فوق ـ، وبعضهم يقولون: ـ بضمها ـ، وبعضهم يقولون: ـ بكسرها ـ، والمتداول على لسان أهل تلك البلدة، وكنت أقمت بها اثني عشر يوماً: ـ بفتح التاء وكسر الميم ـ، والذي كنا نعرفه قديماً فيه: ـ كسر التاء والميم جميعاً ـ، والذي يقوله المتوقون وأهل المعرفة: ـ بضم التاء والميم ـ، وكل واحد يقول معنى لما يدعيه.

والمشهور من أهل هذه البلدة من العلماء: إسحاق بن إبراهيم بن جبلة الترمذي، وأبو أحمد ابن الحسن الترمذي، ومن المشايخ: أبو عبدالله محمد بن علي الحكيم الترمذي، وأبو بكر الوراق الترمذي، وجماعة كثيرة سواهم، ومن القدماء: خالد بن زياد بن جرو الأزدي...، وأبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن شداد الترمذي الضرير، أحد الأئمة الذين يقتدى بهم في علم الحديث، صنف كتاب «الجامع»، و«التواريخ»، و«العلل» تصنيفَ رجل عالم متقن، وكان يضرب به المثل في الحفظ والضبط، تلمذ لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، وشارك معه في شيوخه...

*** حياة الحكيم، وبدوُّ نشأته ورحلاته:**

أُهمل الكثير من جوانب حياة هذا العلامة الجليل الفاضل النحرير، وكل من ترجمه اعتمد على «طبقات الصوفية»، أو «حلية الأولياء»، فردد ما فيهما، مع زيادة بعض الآراء.

وهذا هضم ـ لا شك ـ في حق هذا الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ.

ولعل من أسباب عدم الاهتمام الكبير به أنه كان في عصر الفطاحل

الذين كانوا سمع الدنيا وبصرها فخبى وهجه ـ رحمه الله ـ أمام نور هؤلاء العظام ـ رحمهم الله ـ كالأئمة الستة وغيرهم.

وقد نقل عنه بعض من ترجمه من المعاصرين رسالة بعنوان: بدو شأن أبي عبدالله الحكيم الترمذي، رسالة ترجم فيها الحكيم نفسه وبدو نشأته، ومن العجيب أن المتقدمين لم ينقلوا منها، أو ينوهوا بها، مع أهمية ما فيها بالنسبة إلى حياة الحكيم؛ لذا رأيت الآن الإعراض عنها ريثما يتبين لي ثبوتها عنه، ولعلي أتناولها في رسالة خاصة بحياة الحكيم رحمه الله.

ولعل الدارس لحياة الحكيم الترمذي رحمه الله يلاحظ أن عناية ربانية اختصته:

فمن حيث المكان: ولد في «ترمذ»، وهي معقل من معاقل العلم، ومركز من مراكز الثقافة الإسلامية في القرن الثالث الهجري، نشأ فيها عدد كبير من العلماء والمحدثين.

ومن حيث الولادة: ولد لأبوين صالحين.

ومن حيث المنشأ: نشأ في بيت علم وفضل، فوالده علي بن الحسن لم يكن رجلاً صالحاً فحسب، بل كان من علماء الفقه، ورواة الحديث، تلقاهما ولده عنه حفظاً ودراية.

ومن حيث الهمة: خرج للحج إلى بيت الله الحرام وهو في ريعان الشباب، وفيه ألهم الدعاء والتوبة النصوح، ثم توجه لحفظ كتاب الله تعالى، وسماع الحديث، ثم عكف على العبادة والذكر والخلوة عن الخلق.

ومن حيث الصفات: فقد تحلى ـ منذ صباه وحتى الشيخوخة ـ بصفات وأخلاق عالية، ومما زكَّى عنده تلك الصفات، التزامهُ منهجَ التصوف الحقِّ

الذي لا يشوبه باطل، ولم تدخله البدع، إنما هو التحلي بصفات الله، والتخلق بأخلاق رسول الله ﷺ.

ومن حيث سيرته في حياتـه: كان مبنى حياته على الورع والزهد، وطول النجوى، ومقاومة النفس، وتجنب الشهوات.

فتنته:

تكلم بعد ذلك في أحوال الحب والمحبين، ومقامات السائرين، وطار صيته، وارتفعت منزلته، فامتُحن بأناس سُلبوا الفهمَ السليم، والرأيَ السديد، وفي الخبر الذي نقله السلمي ـ ويحتاج لبحث وتنقيح ـ: أنهم نفوه من «ترمذ»، وشهدوا عليه بالكفر بسبب تأليفه كتاب «ختم الولاية»، وكتاب «علل الشريعة»، وقالوا: زعم أن للأولياء خاتماً، وأنه يفضل الولاية على النبوة، فجاء إلى «بلخ»، فأكرموه؛ لموافقته إياهم في المذهب.

وبعد انجلاء الفتنة، عاد الحكيم إلى مسقط رأسه «ترمذ» ـ كما قيل، وقيل: إنه مات ببلخ ـ لينال شرف القرب من الله بحلول أجله فيها.

ومن صدق هذا العالم الجليل وحسن نيته قوله: ما صنفت مما صنفت حرفاً عن تدبير، ولا لأن يُنسب إلي شيء منه، ولكن كان إذا اشتد علي وقتي، كنت أتسلى بمصنفاتي.

وجاء في «كشف الظنون»: في تصانيفه يلوح صدق ما يقول، لا سيما في هذا الكتاب ـ يعني «نوادر الأصول» ـ: حيث لم يقدم خطبة ولا ترتيباً.

رحلاته:

لم يكن من منهج أهل التصوف الإكثار من الأسفار لأجل السماع ولقاء الشيوخ، إنما كان لهم شأن آخر، ومنهج مختلف، وكذلك كان الحكيم في

بدو أمره؛ اعتماداً منه على والده ـ فقد رضيه شيخاً وموجهاً له ـ، وبعضِ شيوخ القوم، يتعلم منهم أحوالهم، وطريقةَ سلوكهم إلى الله تعالى.

إلا أنه ـ ومع تقدم العمر، وارتقاء الهمة ـ حرص على التوجه إلى بيت الله الحرام، وفي رحلته هذه ذهاباً وإياباً عُني بشأن الحديث والسماع، فتنقل، وسمع الكثير بخراسان والعراق والبصرة، وصار في شيوخه كثرة.

*** مذهبه الفقهي:**

في «لسان الميزان» وغيره: . . . حمل إلى «بلخ»، فأكرموه: لموافقته لهم في المذهب ـ يعني: الرأي ـ.

فهذا يدل على أنه من أهل الرأي، وهو المذهب السائد في تلك الديار، وعليه كان والده علي بن الحسن أحد تلامذة محمد بن الحسن الشيباني صاحبِ أبي حنيفة، إلا أن السبكي ترجمه في «طبقات الشافعية»، وإليه نسبه المناوي في «فيض القدير». فالله أعلم.

*** نماذج من حكمه:**

حِكم الإمام كثيرة، ولو تبحرتَ في هذا الكتاب، لأخرجتَ منه الكثير، وقد نقل عنه العلماء مجموعة من جواهر كلامه، ودُرر عباراته، فيها نماءٌ للفكر، ونور للقلب.

وإليك منها:

قال محمد بن علي الحكيم الترمذي: ليس الفوز هناك بكثرة الأعمال، إنما الفوز هناك بإخلاص الأعمال وتحسينها.

وقال: من شرائط الخدام: التواضع والاستسلام.

وقال: الناس في استماع الحكمة رجلان: عاقل، وعامل، فالعاقل: يتعجب، وهـو لما يسمعه يشتهي، والعامل يتقلب؛ كأن قلبه منـه حيـة تلتوي.

وقال: ليس في الدنيا حمل أثقل من البر؛ لأن من بَرَّكَ فقد أوثقك، ومن جفاك فقد أطلقك.

وقال: كفى بالمرء عيباً أن يسره ما يضره.

وقال: دعا الموحدين إلى هذه الصلوات الخمس رحمةً منه عليهم، فهيأ لهم فيها ألوان الضيافات؛ لينال العبد من كل قول وفعل شيئاً من عطاياه، فالأفعال كالأطعمة، والأقوال كالأشربة، وهي عرس الموحدين.

وقال: العاقل من اتقى ربه، وحاسب نفسه.

وقال: من جهل أوصاف العبودية، فهو بنعوت الربانية أجهل.

وقال: صلاح خمسة أصناف في خمسة: مواطن صلاح الصبيان في الكُتَّاب، وصلاح القُطَّاع في السجن، وصلاح النساء في البيوت، وصلاح الفتيان في العلم، وصلاح الكهول في المساجد.

وقال: ضَمن الله تعالى للعباد الرزق، وفرض عليهم التوكل.

وقال: حقيقة محبة الله دوام الأنس بذكره.

وقال: المؤمن بِشْره في وجهه, وحزنه في قلبه، والمنافق حزنه في وجهه، وبشره في قلبه.

وقال: الدنيا عروس الملوك، ومرآة الزهاد، أما الملوك، فتجملوا بها، وأما الزهاد، فنظروا إلى آفتها، فتركوها.

وقال ـ وقد سئل عن الخلق ـ: ضعف ظاهر، ودعوى عريضة.

وقال: اجعل مراقبتك لمن لا يغيب عن نظره إليك، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه.

وقال: ملاك القلوب بكمال الخشية، وملاك النفوس بكمال التقوى.

وقال: المكلَّم والمحدَّث إذا تحققا في درجتهما، لم يخافا من حديث النفس، وكما أن النبوة محفوظة بالنسخ لإلقاء الشيطان، كذلك محل المكالمة والمحادثة مصونة من إلقاء النفس وفتنتها، محروسة بالحق والسكينة؛ لأن السكينة حجاب المكلَّم والمحدَّث عن نفسه.

وقال ـ وقد سئل ـ: هل يخاف المحدثون سوء العاقبة ـ: خوف هول، وقلق يكون كالخطرات، ثم يمضي؛ فإن الله تعالى لا يحب أن يكدر عليهم مننه.

وغير ذلك كثير، رضي الله عن هذا الإمام، وتغمده بواسع الرحمة والغفران، وأكرمه بالورود على حوض النبي العدنان، وأسكنه فسيح الجنان، آمين.

*** شيوخه:**

للحكيم شيوخ في الصحبة لم ينقل عنهم في «النوادر» حديثاً واحداً.

منهم:

أبو تراب النخشبي المتوفَّى سنة خمس وأربعين ومئتين، وأحمد بن خضرويه المتوفى سنة أربعين ومئتين، ويحيى بن الجلاء.

وله شيوخ في الرواية، ففي رحلته إلى نيسابور والعراق وغيرهما، التقى بالعديد من المحدِّثين الكبار، والعلماء الأفذاذ، سمع منهم فأكثر، والتقى بطبقة دونهم في العلم والرواية، أخذ عنهم النزر اليسير.

لذا قسمت شيوخه إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ من روى عنهم فأكثر، مثاله:

١ ـ علي بن الحسن والده.

٢ ـ قتيبة بن سعيد.

٣ ـ الجارود بن معاذ.

٤ ـ حفص بن عمرو.

٥ ـ سفيان بن وكيع.

٦ ـ صالح بن عبدالله الترمذي.

٧ ـ صالح بن محمد الترمذي.

٨ ـ عمر بن أبي عمر.

٩ ـ عبدالله بن أبي زياد القطواني.

١٠ ـ علي بن حجر السعدي.

وغيرهم.

٢ ـ من روى عنهم دون أولئك، مثاله:

١ ـ إبراهيم بن إسماعيل بن يحيى.

٢ ـ إبراهيم بن المستمر الهذلي.

٣ ـ إبراهيم بن عبد الحميد التمار.

٤ ـ أبو بكر بن سابق الأموي.

٥ ـ عمر بن يحيى بن نافع.

وغيرهم.

٣ ـ من روى عنهم النزر اليسير، مثال:

١ ـ إبراهيم بن زيد الجرجاني.

٢ ـ إبراهيم بن سعيد الجوهري.

٣ ـ إبراهيم بن هارون البلخي

٤ ـ إسماعيل بن الهيثم.

٥ ـ الحسن بن حامد.

وغيرهم.

هذه أمثلة، ومن أراد معرفة شيوخ الحكيم، فلينظر في الكتاب، أو فهرسة الشيوخ، فقد جمعتهم بعد تدقيق شديد، راجياً من الله الصواب.

*** تلامذته:**

ولعلي هنا اقتبس من رسالته المتقدم ذكرها نصاً أَستأنس به في شأن تلامذته، قال الحكيم في رسالته: حتى اجتمع الناس ببابي من مشايخ البلد من غير أن أشعر بهم، وقرعوا الباب، فخرجت إليهم، فكلموني في القعود لهم، وقد كان هؤلاء الأشكال قد قبحوا أمري عند العامة قبحاً كنت أتوهَّم أنهم السقّم أكثرهم؛ لما كانوا يذيعون هؤلاء عليّ من الكلام القبيح، ويشنِّعون أمري، ويرمونني بالبدعة من غير أن يكون ذلك من شأني، أو توهمته قط.

فما زالوا يكلمونني في ذلك حتى أجبتهم إلى القعود، فذكرت لهم من الكلام شيئاً كأنه يغترف من البحر، فأخذت من القلوب مأخذاً، واجتمع الناس، فلم تتحمل داري ذلك، وامتلأت السكة والمسجد، فلم يزالوا بي حتى مدوني إلى المسجد، وذهبتْ تلك الأكاذيب والأقاويل الباطلة، ووقع الناس في التوبة، **وظهرت التلامذة**، وأقبلت الرياسة، والفتن بلوى من الله لعبده.

أقول:

لا شك أن للحكيم ـ وهو إمامُ مدرسة ساميةٍ وفكر راقٍ ـ تلامذة كُثر نهلوا منه، وساروا على طريقته، انتهجوا نهجه، وتذوقوا ذوقه، إلا أنه من الواضح الجلي ضآلة حظ هذا الشيخ الجليل، حتى في ذكر أتباعه ومريديه، فلو خضت عباب كتب التاريخ والتراجم، لما وجدت منهم إلا القليل.

والظاهر من أسلوب الحكيم في الإلقاء والتأليف: أنه لم يفرد مجالس خاصة برواية الحديث كما هي طريقة المحدثين؛ لذا قلَّت تلامذته من حيث الرواية، وكثرت من حيث التربية، هذا جانب، ومن جانب آخر أنه عاش ـ رحمه الله ـ في العصر الذهبي لعلم الحديث إذ كان من أقرانه سادة الدنيا في علم الحديث رواية ودراية، شدت الرحال إليهم وجلس الطلبة بين يديهم، ولما لم يكن الحكيم الترمذي على مرتبة توازيهم في علمهم ومرتبتهم ـ مع جلالته وعلو منزلته ـ، رأيت المطايا إلى غيره مشدودة، وعن بابه مسدودة. والله أعلم.

وممن ذكر من تلامذته:

١ ـ يحيى بن منصور القاضي، أبو محمد.

٢ ـ منصور بن عبدالله الذهلي الهروي.

٣ ـ الحسن بن علي الجرجاني.

٤ ـ محمد بن محمد بن يعقوب الحجاجي الحافظ النيسابوري، أبو الحسين.

٥ ـ أحمد بن عيسى الجوزجاني.

٦ ـ أبو علي النيسابوري، وجماعة من علماء نيسابور.

٧ ـ علي بن محمد بن ينال العكبري، أبو الحسن.

قال الذهبي في «تاريخ الإسلام»: ذكره ـ أي: الترمذي ـ ابنُ النجار، ولم يذكر له وفاة، ولا راوياً إلا عليَّ بنَ محمد بن ينال العكبري، فوهم؛ لأن العكبري سمع محمد بن فلان الترمذي سنة ثمان عشرة وثلاثمئة.

٨ ـ أبو نصر أحمد بن أحيد الشيْشقي ـ هذه النسبة إلى قرية من قرى «ترمذ» يقال لها: «شيشق» ـ روى كتاب «النوادر» عن أبي عبدالله محمد بن علي الحكيم الترمذي[1].

*** الحكيم في رأي أهل العلم:**

قل أن تجد رجلاً من الرجال، أو عالماً من العلماء، إلا وقد اختلف الناس فيه بين مادح وقادح، بين محب ومبغض.

والذي يجب على المحب أو المخالف الإنصاف، والإنصاف عزيز في هذا الزمان، فمن قال من العلماء قولاً، عرض قوله على الكتاب والسنة، فإن خالف، قلنا: أخطأ، وتبقى مكانته محترمة، وإن أصاب، قبلنا منه، وأخذنا

(١) انظر: «الأنساب» للسمعاني (٣/ ٥٠١).

عنه، وأقررنا له.

وإن شئت، فابكِ على حال هذه الأمة وما وصلت إليه، فكلٌّ يدعي الصواب والحق، وأن المخالف على باطل وضلال، وزندقة وانحلال، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وشيخنا الحكيم أحد هؤلاء الرجال المختلَف فيهم.

وكنت أتمنى أن أطيل في هذا المجال ـ لكن المقام لا يسمح ـ عندما قرأت على صفحات الإنترنت أن أحدهم وصف الحكيم بقوله: فيه كلام، وفي عقيدته خلل.

كذا قال، ولا حول ولا قوة إلا بالله، مع أنك لو فتَّشت ونقَّبت عمن وصفه بذلك ـ أي على المعنى المفهوم من عبارته ـ من أهل العلم المعتمد عليهم في مثل هذا، لعجزت، وإليك كلام عمالقة الفن، وشيوخ الجرح والتعديل، ثم احكم:

قال الحافظ أبو نعيم: له التصانيف الكثيرة في الحديث، وهو مستقيم الطريقة، تابع للأثر، يرد على المرجئة وغيرهم.

قال ابن النجار في «ذيل تاريخ بغداد»: كان إماماً من أئمة المسلمين، له المصنفات الكبار في أصول الدين، ومعاني الحديث، وقد لقي الأئمة الكبار، وأخذ عنهم، وفي شيوخه كثرة، وله كتاب «نوادر الأصول» مشهور، رواه عنه جماعة بخراسان.

قال ابن تيمية في «الصفدية»[1]: والترمذي مع فضله وعلمه لما صنف

(١) انظر: (١/ ٢٤٨).

كتاب «خاتم الأولياء» أنكر المسلمون عليه ذلك، وأخرجوه كما ذكر ذلك السلمي. . .

قال الذهبي في «تاريخ الإسلام»: المحدث أبو عبدالله، الحكيم الترمذي، المؤذن، صاحب التصانيف في التصوف والطريق، سمع الحديث الكثير بخراسان والعراق.

وقال في «السير»: الإمام الحافظ العارف الزاهد. . . وكان ذا رحلة ومعرفة، وله مصنفات وفضائل. . . وله حكم، ومواعظ، وجلالة، لولا هفوة بدت منه.

وفي «طبقات المفسرين» للداودي: كان من المشايخ الكبار، وله كرامات ظاهرة، وتصنيفات باهرة، ومن مصنفاته كتاب «النهج»، و«نوادر الأصول» في الحديث، و«التفسير» ولم يكمله.

قال السبكي: ومن تصانيف الترمذي كتاب «الفروق» لا بأس به، بل ليس في بابه مثله.

وقال القشيري في «الرسالة»: هو من كبار الشيوخ، وله تصنيف في علوم القوم. وأطال في الثناء عليه.

وقال السلمي: له الشأن العالي، والنعت المشهور.

وقال ابن عطاء الله: كان العارفان الشاذلي والمرسي يعظمانه جداً، ولكلامه عندهما الحظوة التامة، ويقولان: هو أحد الأوتاد الأربعة.

وقال الكلاباذي في «التعرف»: هو من أئمة الصوفية.

قال الكتاني في «المستطرف»: أحد الأوتاد الأربعة، وصاحب التصانيف.

نعم، نقلوا قول السلمي: نفوه من «ترمذ»، وشهدوا عليه بالكفر بسبب تأليفه كتاب «ختم الولاية»، وكتاب «علل الشريعة»، وقالوا: زعم أن للأولياء خاتماً، وأنه يفضل الولاية، واحتج بقوله ﷺ: «يغبطهم النبيون والشهداء»، وقال: لو لم يكونوا أفضل، لما غبطوهم، فجاء إلى «بلخ»، فأكرموه لموافقته إياهم في المذهب.

إلا أنهم نقلوا عن السلمي توضيح ذلك، ففي «السير»، و«تاريخ الإسلام»: وقال السلمي: هجر لتصنيفه كتاب «ختم الولاية»، و«علل الشريعة»، وليس فيه ما يوجب ذلك، ولكن لبعد فهمهم عنه.

وقال السبكي: ثم اعتذر السلمي عنه ببعد فهم الفاهمين، قلت: ولعل الأمر كما زعم السلمي، وإلا، فما نظن بمسلم أنه يفضل بشراً غير الأنبياء ـ عليهم السلام ـ على الأنبياء.

قلت: وكثير من جمله في ثنايا هذا الكتاب توضح طريقته، وأنه على منهج أهل السنة في تقديم الأنبياء، ثم الأولياء، ثم عامة الخلق.

وفي «فيض القدير»: إنما مراده ولاية النبي ـ صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ـ.

وفي «كشف الظنون»[1]: أخرجوه من «ترمذ»، وشهدوا عليه بما لا ينبغي ذكره في مثله، ولا شك أنه مقتضى التعصب القديم بين الفريقين.

وساق في «تاريخ الإسلام»، و«اللسان» بعد قول السلمي عنه: وبلغني أن أبا عثمان سئل عنه، فقال: تنبؤوا عنه شراً من غير سبب.

---

(١) انظر: (١/ ٩).

أقوال المجرِّحين:

قال أبو عبدالله محمد بن مفلح المقدسي: «رأيت أكثر العباد على غير الجادة، فمنهم من صح قصدُه، ولا ينظرون في سيرة الرسول وأصحابه، ولا في أخلاق الأئمة المقتدى بهم، بل قد وضع جماعة من الناس لهم كتباً فيه رقائق قبيحة، وأحاديث غير صحيحة، وواقعات تخالف الشريعة، مثل: كتب الحارث المحاسبي، وأبي عبدالله الحكيم الترمذي، وأبي طالب المكي».

وقال في «شذرات الذهب»: كان له كلام في إشارات الصوفية، واستنباط معان غامضة من الأخبار النبوية، وبعضها تحريف عن مقصده، وبسبب ذلك امتُحن، وتكلموا في معتقَده، وله عدة مصنفات في منقول ومعقول، ومن أنظفها «نوادر الأصول». انتهى.

وقال ابن القيم في «تحفة المودود»[1]: وقد قال أبو القاسم عمر بن أبي الحسن بن هبة الله ابن أبي جرادة في كتاب صنفه في ختان الرسول يرد به على محمد بن طلحة في تصنيف صنفه، وقرر فيه أن رسول الله ولد مختوناً:

وهذا محمد بن علي الترمذي الحكيم لم يكن من أهل الحديث، ولا علم له بطرقه وصناعته، وإنما كان فيه الكلام على إشارات الصوفية والطرائق، ودعوى الكشف على الأمور الغامضة والحقائق، حتى خرج في الكلام على ذلك عن قاعدة الفقهاء، واستحق الطعن عليه بذلك والإزراء، وطعن عليه أئمة الفقهاء والصوفية، وأخرجوه بذلك عن السيرة المرضية،

---

(١) انظر: (ص: ٢٠٢).

وقالوا: إنه أدخل في علم الشريعة ما فارق به الجماعة، فاستوجب بذلك القدح والشناعة، وملأ كتبه بالأحاديث الموضوعة، وحشاها بالأخبار التي ليست بمروية ولا مسموعة، وعلَّل فيها خفيَّ الأمور الشرعية التي لا يعقل معناها بعلل ما أضعفَها وما أوهاها!.

جواب المحققين:

ساق ابن حجر في «اللسان» ما ذكره ابن القيم عن ابن العديم، ثم قال: ولعمري! لقد بالغ ابن العديم في ذلك، ولولا أن كلامه يتضمن النقل عن الأئمة: أنهم طعنوا فيه، لما ذكرته، ولم أقف لهذا الرجل ـ مع جلالته ـ على ترجمة شافية، والله المستعان.

وساقه المناوي في «الفيض»، وقال: إلى آخر ما قال من الهذيان والبهتان، كما لا يخفى على أهل الشأن، إلى غير ذلك من الكلام في شأن هذا الإمام، وإنما أطلت فيه؛ دفعاً لذلك الافتراء، فلا تكن من أهل المراء.

وقال الذهبي: وله حكم، ومواعظ، وجلالة، لولا هفوة بدت منه.

وأختم أيضاً بقول شيخ المحققين، وخاتمة المدققين، ذهبيِّ كل وقت، حيث قال في «تاريخ الإسلام»:

فما أدري ما أقول، أسأل الله السلامة من شطحات الصوفية، وأعوذ بالله من كفريات صوفية الفلاسفة الذين تستروا في الظاهر بالإسلام، ويعملون على هدمه في الباطن، وربطوا العوالم بربط، ورموز الصوفية وإشاراتهم المتشابهة، وعباراتهم العذبة، وسيرهم الغريب، وأسلوبهم العجيب، وأذواقهم الجلفة التي تجر إلى الانسلاخ، والفناء، والمحو، والوحدة، وغير ذلك.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾[الأنعام: ١٥٣]؛ يعني: طريق الكتاب، والسنة المحمدية، ثم قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

والحكيم الترمذي فحاشى لله، ما هو من هذا النمط؛ فإنه إمام في الحديث، صحيح المتابعة للإشارة، حلو العبارة، عليه مؤاخذات قليلة؛ كغيره من الكبار، وكل أحد يؤخذ قوله ويترك، إلا ذاك الصاد المعصوم رسول الله ﷺ، فيا مسلمين بالله تعالوا نبكي على الكتاب وأهلها، وقولوا: اللهم أجرنا في مصيبتنا، فقد عاد الإسلام والسنة غريبين، فلا قوة إلا بالله العلي العظيم. ا هـ.

*** وفاته:**

جُهلت وفاته على التحديد كما جُهلت ولادته.

والقول بأن وفاته سنة (٣٢٠) لا أراه يصح؛ فإن من قاله بناه على قول ابن الأنباري أنه سمع منه سنة (٣١٨)، وبه قال ابن حجر، وقال: عاش نحواً من تسعين سنة.

أما الذهبي، فقد قال: ذكره ابن النجار، ولم يذكر له وفاة، ولا راوياً إلا عليَّ بن محمد بن ينال العكبري، فوهم؛ لأن العكبري سمع محمد بن فلان الترمذي سنة ثمان عشرة وثلاثمئة.

قال الذهبي: قدم نيسابور، وحدث بها في سنة خمس وثمانين ومئتين ولم يُذكر تاريخ وفاته.

مع قوله في كتاب آخر: عاش نحواً من ثمانين سنة.

قلت: والمعروف أنه ولد في صدر القرن الثالث، فعلى هذا يكون القول إنه مات في حدود سنة (٢٨٥) أقربَ للصواب، وقول ابن حجر: إنه عاش (٩٠) سنة، وإنه مات سنة (٣٢٠)، فيكون ميلاده قريباً من (٢٣٠)، ولا أرى هذا يصح مع النظر إلى تاريخ وفاة بعض شيوخه.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى: ذكر الحكيم ـ في رسالة بدو شأنه إن ثبتت ـ أنه بقي في كنف والده، ولم يخرج من «ترمذ» حتى قارب سنه سبعاً وعشرين سنة، وعلى هذا يكون تلقيه في حدود سنة (٢٥٥) وما بعدها، وهذا لا يمكن القول به، والله أعلم بالصواب.

بقي أن نقول: هل مات مقتولاً أم لا؟.

ذكر في «كشف الظنون»: المتوفى شهيداً.

وفي «الرسالة المستطرفة»: المتوفى مقتولاً ببلخ.

ولم تتعرض غيرهما من المصادر المترجمة للحكيم إلى هذا الأمر، ومسألة القتل مبهمة جداً غير واضحة؛ فإن الحكيم قد انتهى من فتنته قبل موته، وصار مصدراً للعلم والثقافة. والله أعلم بالصواب.

*** مؤلفاته وآثاره:**

قام بعض الأفاضل ـ جزاهم الله خيراً ـ باستقراء كتب الحكيم الترمذي، ودونها في دراسته لحياة الشيخ رحمه الله، منهم: الدكتور الجيوشي[1]، ومنهم: الدكتورة رجاء مصطفى حزين[2]، وقسمت تلك الكتب إلى ثلاثة أقسام:

---

(١) في كتابه: الحكيم الترمذي دراسة لآثاره وأفكاره.

(٢) في كتابها: الحكيم الترمذي ومنهجه الحديثي في نوادر الأصول.

الكتب المطبوعة، الكتب المخطوطة، الكتب المفقودة.

الكتب المطبوعة:

١ ـ أدب النفس.

٢ ـ الأمثال من الكتاب والسنة.

٣ ـ بدو شأن أبي عبدالله (ترجمة بقلمه).

٤ ـ بيان الفرق بين الصدر والفؤاد واللب.

٥ ـ تحصيل نظائر القرآن.

٦ ـ الحج وأسراره.

٧ ـ ختم الأولياء.

٨ ـ الرياضة.

٩ ـ شرح الصلاة ومقاصدها.

١٠ ـ الكلام على معنى لا إله إلا الله.

١١ ـ معرفة الأسرار.

١٢ ـ منازل العباد من العبادة.

١٣ ـ نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول ﷺ. (قلت: الذي طبع المختصر منه، وأما النسخة الكاملة، فهي نسختنا هذه، ستطبع لأول مرة. والله الموفق).

١٤ ـ آداب المريدين.

١٥ ـ بيان الكسب.

١٦ ـ المسائل المكنونة.

١٧ ـ رسالة مكر النفس.

١٨ ـ علم الأولياء.

المخطوطات:

١ ـ أبواب مختلفة.

٢ ـ إثبات العلل في الأمر والنهي.

٣ ـ الأدعية.

٤ ـ كتاب الأكياس والمغترين.

٥ ـ أنواع المعارف.

٦ ـ بيان العلم.

٧ ـ بيان الفرق بين الآيات والكرامات.

٨ ـ الجمل اللازم معرفتها.

٩ ـ جواب كتاب الري.

١٠ ـ الحقوق.

١١ ـ الحكمة أو الخدمة من علم الباطن.

١٢ ـ الرد على الرافضة.

١٣ ـ الرد على المعطلة.

١٤ ـ رسائل في الفتوة.

١٥ ـ سبب التكبير في الصلاة.

١٦ ـ شرح سؤالات في التعبيرات الإلهية.

١٧ ـ شرح قول ما الإيمان والإسلام والإحسان.

١٨ ـ صفة القلوب.

١٩ ـ عرس الموحدين.

٢٠ ـ العقل والهوى.

٢١ ـ العلل أو كيفية الصلاة والوضوء والسواك.

٢٢ ـ غرس الموحدين (قلت: وسماه بعضهم: غرس العارفين).

٢٣ ـ غور الأمور ويسمى الأعضاء والنفس. (قلت: طبع حديثاً).

٢٤ ـ الفروق ومنع الترادف (قلت: طبع حديثاً).

٢٥ ـ مسائل أهل سرخس.

٢٦ ـ مسائل التعبير.

٢٧ ـ مسائل رقم واحد.

٢٨ ـ مسائل رقم اثنان.

٢٩ ـ المسائل العفنة.

٣٠ ـ المسائل المكنونة.

٣١ ـ منتخبات من كتاب الصفاء.

٣٢ ـ المناجاة.

٣٣ ـ نوادر أصول العرفان وزواهر فروع الإيقان.

٣٤ ـ الهداية إلى معرفة آداب الولاية.

الكتب المفقودة:

١ ـ كتاب الإرادات.

٢ ـ بيان المعرفة والصفاء.

٣ ـ تاريخ المشايخ.

٤ ـ تفسيره.

٥ ـ التوحيد.

٦ ـ ختم الأنبياء.

٧ ـ سيرة الأولياء.

٨ ـ طبقات الصوفية.

٩ ـ عذاب القبر.

١٠ ـ العلوم.

١١ ـ المنهج في العبادة.

١٢ ـ النهج (قلت: وسماه بعضهم: المنهج، فلعله السابق).